الفصل الأول

الصداع في كتب التراث

نتناول في هذا الفصل عرضا لأهم ما ورد عن الصداع في كتب التراث: عن العلماء العرب: عبد الله بن طاهر، ثابت بن قرة، ابن ماسويه، ابن سينا، علي بن رضوان المصري، وفي المكتبة الإسلامية: كتاب القانون، زاد المعاد في هدى خير العباد، وعلاج الصداع بكهرباء الرعّاد قديما، ومعتقد علاقة الصداع بالمسّ الشيطاني.

عن العلماء العرب

عبد الله بن طاهر

معروف نجاح "عبد الله بن طاهر" في إرساء دعائم الدولة العباسية، التي غرس أبوه بذرتها الأولى، واستطاع أن يوفر لها من الأسباب ما مكّنها في السنوات القليلة التي عاشتها "٢٠٥- ٢٥٩هـ= ٧٨٢- ٨٣٦م" من أن يكون لها دور بارز في مسيرة الحياة، وأن تترك بصمات واضحة في تاريخ تلك المنطقة.

وقد شهدت الحياة الفكرية والعلمية والثقافية نهضة كبيرة في عهد "عبد الله بن طاهر"، فكان يشجع العلماء والأدباء والشعراء، وكان شاعرا بليغا يهتم باللغة العربية وفنونها وآدابها، فالتف حوله عدد من الأدباء والعلماء والفقهاء، منهم "أبو عبيد الله القاسم بن سلام"، وكان "عبد الله بن طاهر" يشمله بالعطف والرعاية، فكان إذا ألفّ كتابا أهداه إلى "عبد الله" فيكافئه على ذلك بالأموال الكثيرة. كما ارتبط كذلك بالشاعر "كلثوم بن عمرو بن الحارث"- "العنابي"- وكانت بينهما علاقة وطيدة. وارتبط به كذلك "يوحنا بن ماسويه" الطبيب الشهير، وألف له كتاب "الصداع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته" (إسلام أون لاين، ٢٠٠٦ أ).

ومعروف أن العصر العباسي قد شهد نهضة حضارية وحركة فكرية رائدة امتدت لتشمل العديد من المجالات، وكان لوعي الخلفاء والحكام ورعايتهم للعلم والفن والثقافة والأدب أكبر الأثر في تشجيع العلماء والأدباء والفقهاء على الإجادة والإبداع، وإشعال الرغبة في الإجادة والتميز في نفوسهم حيث حظي هؤلاء بمكانة متميزة، ليس في بلاط الخلافة فحسب وإنما في المجتمع كله. وقد أدى هذا الاهتمام من جانب الخلفاء والحكام بالعلم إلى ظهور عدد كبير من العلماء الأفذاذ الذين حملوا على عاتقهم تلك النهضة الحضارية، وقادوا مسيرة العلم والتقدم، ودفعوا عجلة الحضارة الإسلامية تلك الدفعة القوية التي ظلت أصداؤها تتردد في ظلام أوروبا لعدة قرون.

ثابت بن قرة

يعدّ ثابت بن قرة "٨٣٤– ٩٠١م" أحد أعلام العرب المعدودين في العصر العباسي، بل وامتد تأثيره ليصل إلى القرون التالية، فقد ظلت آثاره مرجعا مهما لطلاب العلم والباحثين في أنحاء الدنيا لعدة قرون. ومن مؤلفاته الطبية كتاب "الذخيرة في علم الطب". وكان ثابت من أوائل الرواد في جانب مهم من جوانب الطب لم يتطرق إليه كثير من الأطباء في عصره، فقد كان له اهتمام بالأمراض الجلدية، ومستحضرات وأدوية التجميل، حيث تحدث عن الأمراض التي تصيب سطح جلدة الوجه مثل الكلف والقوابي، والآثار السود والبيض الناجمة عن الجدري، كما تحدث عن القروح والبَرص والحكة والبهق بنوعيه الأبيض والأسود، والسعفة والحزاز، وأمراض الشعر، وتحدث كذلك عن الهزال والسمنة وذكر أسبابها وآثارها ووسائل علاجها.

وتطرق إلى أمراض الرأس، فذكر أنواع الصداع الذي يعتري الإنسان، كما تعرض لأنواع الشقيقة "الصداع النصفي"، وذكر ما يقوي الرأس وينقي الدماغ من الأدوية والأغذية، كما تحدّث عن الأغذية الضارة بالرأس والذهن، وأوضح الأثر الضار للدسم والدهون على صحة الإنسان، كما كان له باعا طويلا في الأمراض العصبية والعقلية والنفسية، واستطاع أن يشخص السكتة والصرع ويفرق بينهما، كما وصف التشنج وذكر أسبابه وعلاجه، ووصف عددا من الأمراض النفسية مثل الماليخوليا. وكانت له أيضا دراسات في مجال الأمراض الجنسية وأمراض الذكورة، وتناول أمراض النساء

والتوليد، واهتم أيضا بطب الأطفال، وله آراء قيمة في الحديث عن زيادة اللبن وقطعه، والأمراض التي تصيب الأطفال كالحصبة والجدري (إسلام أون لاين، ٢٠٠٦ ب).

ابن ماسويه

وهو أبو زكريا يحيى بن ماسويه الخوزي، طبيب عالم، سرياني من ناحية أبيه، صقلي من ناحية أمه. كانت وفاته في سامراء، في جمادى الآخرة عام ٢٤٣هـ، تاركا ما يقرب من أربعين مصنفا بين كتاب ورسالة. ومن كتبه المعروفة: النوادر الطبية، كتاب الأزمنة، وكتاب الحميَّات. وقد ترجمت هذه الكتب وطبعت عدّة مرات. أما آثاره التي لم تطبع فأهمها: طبقات الأطباء، كتاب الكامل، الأدوية المسهّلة، كتاب دفع مضار الأغذية، علاج الصداع، الصوت والبحّة، الفصد والحجامة، كتاب الفولنج، معرفة العين وطبقاتها، كتاب البرهان، كتاب الأشربة، كتاب الجنين، كتاب المعدة، كتاب الجذام، كتاب السموم وعلاجها، كتاب الماليخوليا، كتاب التشريح.

وتشير هذه القائمة من المؤلفات الطبية لابن ماسويه إلى دوره الكبير في العصر العباسي الأول، وإليه يعود الفضل في دفع عجلة العلوم خطوات كبيرة، وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من العلماء اشتهر اسمهم واعتُبروا من كبار أطباء العرب (موقع عِلم المسلم، ٢٠٠٦).

ابن سينا

في دراسة عن ابن سينا "٩٨٠ – ١٠٣٧م" تعرضت لأهم أدوية الزينة التي أوردها في كتابه "القانون" في الطب، ظهر مدى مساهمته في هذا المجال حتى وصل للشكل الذي نشهده اليوم. وقد ورد ذكر العديد من الأدوية والتعليق عليها كما هو مقتبس من كتاب "المعتمد في الأدوية المفردة" ليوسف بن عمر بن علي الغساني التركماني كما يلي:

. القَطِران: يسيل من شجرة الشربين، وهو دواء حار يابس، يستخدم في بعض حالات الصداع ومن قروح الرئة والصدر.

. الحِنّاء: شجرة كبيرة مثل شجر السدر، رائحتها ذكية، ويستخدم منها ورقها لعلاج الأورام الملتهبة وفي مداواة الحمرة والقلاع، ويستخدم زهرها لتسكين الصداع.

"مازالت الحناء تُستخدم حتى الآن في علاج الصداع، وسوف يأتي الحديث عنها تفصيلا في الفصل السادس".

. النسرين: ورد أبيض، زهره يدر الطمث ويقتل الأجنة ويخرجها، ويصلح لعلاج الأورام الحارة لاسيما التي تكون في الرحم. ويستخدم أيضا كمسهل ويسكّن الصداع ويقتل الديدان في الأذن وينفع من الطنين والدوي ومن وجع الأسنان.

. دهن الورد: كان يستخدم لغايات عديدة، فهو يسْهل البطن إذا شُرب، ويبني اللحم في القروح العميقة، ويُدهن به الرأس للصداع في ابتدائه، ويُتمضمض به لوجع الأسنان، وكان يُطلى به بدن صاحب الحكة فيسكنها (موقع الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي، ٢٠٠٦ أ).

علي بن رضوان المصري

وهو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر، الطبيب العربي الذي نشأ في مصر في القرن الخامس الهجري، والذي لم ينل حظه من الشهرة والاهتمام، واختلفت حوله آراء المؤرخين، فمن واصف له بالشعوذة وسفاهة الرأي كالقفطي، إذ يقول عنه "وكان أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثم قرأ شيئا من الطب وشيئا من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين، ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة"، إلى مادح له أشد المدح كابن تغري بردي في نجومه الزاهرة إذ يقول: "كان من كبار الفلاسفة في الإسلام وكان له دار بمدينة مصر على قصر الشمعة تعرف بدار ابن رضوان وقد تهدمت الآن، كان إماما في الطب والحكمة وكثير الرد على أرباب فنه، وكان فيه سعة خُلق عند بحثه وله مصنفات كثيرة".

وقد تأثر ابن رضوان بمدرسة الإسكندرية التي كانت تحضّ على تدريس عشرين كتابا، أربعة لأبوقراط وستة عشر كتابا لجالينوس، ثم إن شاء الطالب الاستزادة فلابد من قراءة ما تبقى من كتب جالينوس وأبوقراط. والحق أن ابن رضوان كان متأثرا بل ومتعصبا لجالينوس حتى أنه إذا اعترضته مشكلة ولم يجد لها حلا في كتبه رآه في الحلم يرشده إلى الحل. يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأبناء "ونقلت عن ابن رضوان في شرحه لكتاب جالينوس في فرق الطب ما هذا نصه قال: وقد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس، ففصدت فلم يسكن وأعدت الفصد

مرارا وهو باقٍ على حاله، فرأيت جالينوس في النوم، وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء، فقرأت عليه سبع مقالات فلما بلغت إلى آخر السابعة قال نسيت ما بك من صداع وأمرني أن أحجم من الرأس، ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان" (موقع الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي، ٢٠٠٦ ب).

في المكتبة الإسلامية

القانون

ورد في المقالة الثانية لكتاب القانون، أشهر كتب ابن سينا الطبية: أوجاع الرأس: الفصل الأول: كلام كليّ في الصداع: الصداع ألم في أعضاء الرأس، وكل ألم فسببه تغير مزاج دفعه واختلافه أو تفرق اتصال أو اجتماعهما جميعا. وتغيّر المزاج هو أحد الستة عشر المعروفة. وتفرق الاتصال معلوم وأصنافه بحسب أسبابه معلومة، واجتماع سببيّ الألم معا يكون في الأورام. والأورام كما علمت معدودة الأصناف وأصنافها أربعة، وجميع ذلك قد يكون في جوهر الدماغ نفسه، وقد يكون في الحجاب المطيف به، وقد يكون في الجانبين المطيفين به، وقد يكون في العروق، وقد يكون في الأغشية الخارجة عن القحف لما بينها من العلائق المعروفة في التشريح الموصوف، وقد يكون السبب المؤذي لأي هذه الأعضاء ثابتا في العضو نفسه وقد يكون بمشاركة غيره له: إما عضو يصل بينه وبين أعضاء الرأس واشجة العصب مثل المعدة والرحم والحجاب وأعضاء أخرى إن كانت، أو عضو يصل بينه وبين الدماغ والعروق من الأوردة والشرايين مثل القلب والكبد والطحال، وإما عضو يجاوره مجاورة أخرى مثل الرئة الموضوعة تحته فيؤدي إليه، وإما عضو مشارك لعضو من جهة وللدماغ من جهة أخرى مثل مشاركته للكلية في أوجاعها. وإما بمشاركة البدن كله كما يكون في الحميات. وما كان بمشاركة فقد يكون بأدوار ونوائب بحسب السبب الذي في العضو المشارك، مثل ما يكون بمشاركة المعدة إذا كان لانصباب المواد المرارية أو غيرها إليها أدوار، ومثل ما يكون مع أدوار تزيد أصناف الحميات والصداع.

ومن الصداع ما سببه صِنف من الأسباب البادية مثل صداع الخمار ما دام لم يرسخ لرسوخ سبب أريد من ذلك، ومثل صداع كل شيء حار نحو الثوم وغيره، ومنه ما سببه

سابق قد وصل فهو لابث فيلبث هو لأجله، وربما كان عَرَضا ثم صار مرضا، وإذا بقي مرضا بعد الحميّات الحارة أنذر بعلل دماغية ودلّ على عجز الطبيعة عن دفع المادة بالكمال برعاف أو غيره من العلل التي ينذر بها سبات وسكات وجنون أو استرخاء أو صمم بحسب جوهر المادة وبحسب حركاتها.

والصداع قد ينقسم من جهة مواضعه، فإنه ربما كان في أحد شقي الرأس وما كان من ذلك معتادا لازما فإنه يسمى شقيقة، وربما كان في مقدم الرأس وربما كان في مؤخر الرأس وربما كان محيطا بالرأس كله، وما كان من ذلك معتادا لازما فإنما يسمى بيضة وخوذة تشبيها ببيضة السلاح التي تشتمل على الرأس كله.

والصداع قد يختلف أيضا بالشدّة والتوسّط والضعف. فمن الصداع ما هو شديد جدا حتى إنه إذا صادف يافوخ صبي ليّن العظام مرقه وصدع درزه، ومنه ما هو ضعيف مثل أكثر ما يكون في ليثرغس أي النسيان. ومن الضعيف ما هو لازم ومنه ما هو غير لازم. وربما كان الصداع الذي سببه ضعيف يعرض لبعض دون بعض، فيعرض لمن حسّ دماغه قوي ولا يعرض لمن حس دماغه ضعيف. وبالجملة فإن الدماغ يكون سريع القبول للمصدعات: إما لضعفه: وقد عرف في الكليات أن الضعف تابع لسوء مزاج، وإما لقوة حسه فيتأذى عن كل سبب وإن خفّ.

وأيضا فإن من الصداع ما لا أعراض له، ومنه ما يؤدي إلى أعراض تختفي بنواحي الرأس: مثل أن يحدث- أعني الصداع لشدة الوجع- أوراما في نواحي الرأس، ومنه ما يؤدي إلى أعراض تتعدى إلى أعضاء أخرى، مثل أن يتأدى أضراره أو إيلامه إلى أصول الأعصاب فيحدث التشنج، أو يتعدى شيء من ذلك إلى المعدة فيحدث سقوط الشهوة والفواق والغثيان وضعف الهضم ونحو ذلك. واعلم أن الصداع المزمن إما أن يكون لبلغم أو لسوداء أو ضعف رأس أو ورم صلب مبتدا أو حار قد صلب وهو الكثير. والصداع وجميع الأمراض قد تختلف، فربما كان المرض مسلما، والمسلم هو الذي لا مانع من تدبيره بما يجب له في نفسه، ومنه ما ليس بمسلم بل هو ذو قرينة وربما منعت عن تدبيره بالواجب، مثل أن يكون صداع ونزلة فتعارض النزلة الصداع في واجبه من التدبير.

والصداع أيضا قد ينقسم باعتبار آخر، فإن من الصداع ما يعرض أحيانا للصحيح لا قلبة به، ومنه ما إنما قد يعرض لذي أورام وأوصاب. ومن الأبدان أبدان مستعدة للصداع وهي:

الأبدان الضعيفة، الرؤوس الضعيفة، الأعضاء الهاضمة فتتولد فيها بخارات وتنصب إلى معدهم أخلاط مرارية فتصدع. وأيضا فإن من التناولات أشياء مصدّعة قد ذكرت في جداول الأدوية المفردة. وجميع الأفاويه مصدّعة خصوصا السليخة والقسط والزعفران والدارصيني والحماما. وجميع المبخرات مصدّعة حارة كانت أو باردة لكنها إذا تعاقبت تدافعت، أعني إذا كان قد تقدّم ما آذى بحرارة بخاره وعقبه ما يبخر بخارا باردا أو بالعكس. وأما إذا كان الأذى ليس بالكيفية وحدها بل وبالكمية فلا ينفع تعاقبها بل يضر. وقد يكثر الصداع البارد للاحتقان في الشتاء وإذا كان الصيف شماليا قليل المطر وكان الخريف جنوبيا مطيرا كثر الصداع في الشتاء. وكثيرا ما يكون الصداع بسبب تأدية البخارات الخبيثة إلى الرأس.

فصل في تفصيل أصناف الصداع الكائن من سوء المزاج: فلنأت بكلام يفصل كل واحد من هذه الجمل، وهذا هو التفصيل الأول فنقول: أما الجملة المزاجية فإن المزاج الحار والمزاج البارد والمزاج اليابس والرطب قد يحدث عنها الآلام على نحو ما علمنا في الأصول الكلّية، وإن كان الحال في المزاج اليابس ما علمت من أنه قليل التأثير للألم، والمزاج الرطب بما هو رطب فليس يؤلم إلا أن يكون هناك مادة رطبة مؤلمة من جهة تبخير أو إحداث ريح يفعل تفرّق الاتصال. والحار والبارد اليابسان يؤلمان بالكيفيتين. وأما الحار والبارد الرطبان فلا يؤلمان إلا من حيث هما حار وبارد لا من حيث هما رطبان إلا على الجهة المذكورة.

والمزاج الحار إما أن يكون سببه مادة حارة دموية أو صفراوية أو مركبة محتدة ملتهبة تفعل بكيفيتها التأثير، وإما أن يكون سببه ريحا وبخارا حارا، وإما أن يكون سببه حركة مسخّنة بدنية أو نفسانية على ما علمت من أقسامها في الأصول الكلّية، أو يكون سببه مثل ملاقاة نار أو إحراق شمس أو تناول غذاء أو دواء مسخّن أو مجاورة أعضاء قد سخنت، ومشاركتها وأسباب المزاج البارد المصدع مقابلات هذه مما إليك عدة. وأسباب اليابس إما مجففات منا خارج بالتحليل والإحراق وكالسمائم والأضمدة الحارة، أو مجمّدات طبيعية أو عارضة بغتة وغير بغتة تمنع الغذاء من أن ينفذ إلى الرأس فتجف أعضاؤه لانقطاع الشرب وتحلل الرطوبة الأصلية، أو مجفّفات من داخل بتحليلها أو باستفراغها أو بأن قوتها مجفّفة، أو أن الغذاء الكائن منها يابس أو قليل الرطوبة ومجاورة أعضاء قد يبست

ومشاركتها والحركات النفسانية والبدنية المفرطة مجفّفات بطريق الاستفراغ والتحليل. وكذلك الجماع والإدرار والنزف والرياضة القوية.

والاستفراغات منها استفراغات في أعضاء غير أعضاء الرأس يشاركها الرأس، مثل الاستفراغات الكلّية من البدن كله أو الاستفراغات الجزئية من عضو دون عضو، ومنها استفراغات في أعضاء الرأس مثل الزكام والنزلة والرعاف وأصناف التحلب المكتسب بالسعوطات والعطوسات والغراغر، ومن أسباب اليبوسة انقطاع مواد الرطوبة وإن لم يكن باستفراغ مثل الصيام وترك الطعام أو فقدانه.

فصل في تفصيل أصناف الصداع الكائن بسبب تفرّق الاتصال: تفرّق الاتصال قد يعرض في حجب الدماغ وقد يعرض في جوهره وقد يعرض في العروق فتفتق، وربما كان كما تعلم من حركة البخارات والرياح ابتداء أو لسدّة وربما كان لخلط أكّال، وربما كان من ضربة أو سقطة أو قطع من خارج، والذي يكون من داخل فربما لم يلتحم وبقي قرحة تؤذي الرأس وتديم التصديع. والضربة والسقطة ربما كانت خفيفة المؤنة فتعالج وربما بلغت أن يتقلقل لها الدماغ ويهلك. وقد ذكر بعض أطباء الهند أنه ربما كان السبب في الصداع دودا يتولد في نواحي الرأس فتؤذي بحركتها وتمزيقها وأكلها، وقد استبعد هذا قوم وليس بالواجب أن يستبعد فإن الدود كثيرا ما يتولد فيما بين مقدم الرأس وأعلى الخياشيم فيجوز أن يتولد عن الحجب وإن كان الندرة.

فصل في تفصيل أصناف الصداع الكائن عن الأورام: الورم الذي يحدث عنه الصداع ربما كان في حجب الدماغ وربما كان حارا ويسمى سرساما حارا، وربما كان باردا ويسمى: ليثرغس أي النسيان، وربما كان مركبا ويسمى حال صاحبه السبات السهري، وربما كان صلبا، وقد يكون في نفس الدماغ وجوهره فيكون إما حارا فلغمونيا أو حمرة وإما باردا. وتفصيل جميع ذلك مما يأتيك عن قريب. وهذه كثيرا ما تنحل بأن يخرج من الرأس في الأذن وغيره قيح أو صديد أو مادة مائية.

فصل في كيفية عروض الصداع من المواد: نقول: إن المواد تكون سببا للصداع إما بالذات وإما بالعرض، والذي بالذات فبأن تغير المزاج بالذات أو تفرق الاتصال بالذات. وإنما تغتر المزاج بالذات على وجهين إما بالمجاورة وإما بالتحليف. أما الذي بالمجاورة فبأن يكون الخلط مخالطا حارا أو باردا فيسخن أو يبرد تسخينا أو تبريدا إذا فارق الخلط

مما خالطه ففنى وتلاشى ولم يلبث لبثا يعتد به. وأما الذي بالتحليف فأن يكون الخلط قد أرسخ الأثر وثبته فلو فارق باستفراغ وتحلّل بقيت الكيفية راسخة. وأما كونها سببا للصداع بالذات على سبيل تفرّق الاتصال فذلك بحركتها ونفوذها أو بلذعها وتأكّلها. وأكثر ما يصدع بالتحريك أن يهيّج رياحا، وأكثر ما يفعل ذلك مواد باردة ضربتها حرارة طارئة أو أغذية ريحية مخالطة لحرارة. وأما اللذّاعة الأكّالة فهي الأخلاط الحارة، وأما الصداع الكائن عنها بالعرض.

فإذا حدثت سدة ورمية أو غير ورمية، فإنه يتبعها تغير المزاج كما علمت ويتبعها تفرق الاتصال، وذلك لأن المواد التي تحركها الطبيعة في البدن إما على سبيل نفض أو على سبيل تمييزه وقسمته غذاء، فإنما تحركه في منافذ طبيعية إذا سدت منعت وإذا منعت قاومت. والمقاومة توجب التمديد، والتمديد يوجب تفرق الاتصال. والسدة قد تعرض في جوهر الدماغ وقد تحدث في الأوردة التي فيه وقد تحدث في شرايينه. والسدة تعرض عن الأخلاط إما للزوجتها وإما لغلظها وإما لكثرتها. والصداع البحراني يكون من قبيل الصداع الذي سببه تحريك طبيعي على سبيل النفض. والصداع الذي يكون بعقب انهضام الطعام يكون من قبيل الصداع الذي سببه تحريك طبيعي على سبيل التمييز.

وأما حصول المادة المؤذية في العضو فيجب أن نذكره من الأصول الكلية، بعد أن تعلم أنها إما أن تكون متقادمة الحصول والاحتباس، وإما أن تكون غذائية أي تولدت في الوقت عن الغذاء تولد كيموس رديء في جوهره وكيفيته لفساد في نفس الغذاء أو ترتيبه أو قدره أو هضمه أو سائر وجوه فساده المذكورة في بابه. ومن هذا القبيل صداع أكل الثوم والبصل والخردل وصداع الخمار وصداع من تناول الباردات. وحركات المواد في الأعضاء يجب أن تتذكرها من الأصول الكلية، والريح من جملة المواد المصدعة ويصدع بالتحديد وذلك إذا ضاق عليه منفذ طبيعي قد خلق أضيق مما ينبغي له في وقته أو طلب أن يحدث منفذا غير طبيعي. والبخار أيضا من جملة ذلك، ويفعل إما بكيفيته وإما لمزاحمة الأخلاط في الأمكنة فتحركها. والرياح والبخارات قد تتولد في البدن وفي الدماغ نفسه وقد تستنشق من خارج أو تأتي من جهة المسام ثم تحتقن في الدماغ فيصدع. ومن هذا القبيل صداع النتن وصداع الطيب. واعلم أن الرياح البلغمية والبخارات البلغمية ثقيلة بطيئة الحركة محتبسة والسوداوية موحشة ثابتة أقل كما أو أردأ كيفا، والأخلاط الحادة لا تهيج

رياحا بل أبخرة، والأبخرة الدموية عذبة أقل من الأبخرة ضررا بل أكثرها بكميتها، والصفراوية حادة ملتهبة فاعلم جميع ما قلناه.

فصل في أصناف الصداع الكائن بالمشاركة: الصداع الكائن بالمشاركة منه ما هو بمشاركة مطلقة ومنه ما هو بمشاركة غير مطلقة. والمشاركة المطلقة هو أن لا يتأدي إلى ناحية الدماغ من العضو المشارك شيء جسماني البتة إلا نفس الأذى. وأما المشاركة غير المطلقة فأن يتأدى إلى جوهر الدماغ من ذلك العضو مادة. ومن القسم الأول: أصناف الصداع الكائن في التشنج والكزاز والتمدد ورياح الأفرسة وأوجاع المفاصل ومثل ما يكون في النقرس وعرق النسا القويين.

وربما كان المتأدي من الكيفيات المشاركة، كيفية ساذجة من الكيفيات الطبيعية، أو كيفية غريبة رديئة لا تنسب إلى حر أو برد مثل الكيفيات السمية. فربما يكون في بعض الأعضاء خلط سمي رديء الجوهر فتتأذى كيفيته، وربما كان المتأدي من المواد مواد غير غريبة في طبائعها وأدت باشتداد كيفياتها أو تزايد كمياتها، وربما كان المتأدي مادة غريبة تولدت في بعض الأعضاء تولدا غريبا فاسدا كما يكون في احتقان الرحم أو يكون لمن طال عهده بالجماع أو حدث في مرات خلط رديء وفي شيء من أطرافه، وربما صارت الكيفية المؤذية المتأدية سببا لحصول مادة مؤذية أيضا وذلك على وجهين، أحدهما أن تفسد تلك الكيفية ما تجده في نواحي الدماغ من المواد الجيدة أو ما يتأدى إليها من الغذاء الجيد، والثاني أن يجعل الدماغ قابلا للمواد الرديئة، وهذا القبول على وجهين أحدهما قبول عن جذب منه مثل أن يسخن منه الدماغ فيجذب إليه بالسخونة المواد، والثاني قبول عن ضعف مقاومة، وأن العضو إذا ضعف قبِل ما يصير إليه من المواد. والمشاركة التي تكون مع البدن كله، فإما لمادة فاشية في البدن كله، والصداع البحراني من قبيله، وإما لكيفية فاشية في البدن كله كما تكون في الحميات. وإذا اشتد الصداع في الحميات الحادة كان اشتداده علامة رديئة بل قاتلة إذا قارنه سائر العلامات الرديئة، فإن انفرد دل على بحران برعاف، وربما على بحران بقيء.

والأعضاء المشاركة للرأس أولها وأولاها المعدة، فإنه قد يفضل في المعدة أخلاط أو يتولد فيها، أو ينصب إليها مرار على أدوار وغير أدوار، وتكون حلقة المرار بحيث ينصب المرار من وعائها الغليظ دون الرقيق إلى المعدة على ما شرحناه في بابه، أو يحتبس فيها

رياح أو يتصعد منها أبخرة فيكون منه صداع، والخمار يصدع ويسرع إليه البرد لتخلخل أطرافه، والرحم مما يشاركه الدماغ مشاركة قوية والكبد أيضا والطحال والحجاب والكلية والأطراف كلها وناحية الظهر، وأول ما يشارك الدماغ ما يطيف به من الغشاء المجلل للقحف، وكثيرا ما يكون صداع المشاركة عند انتقال المادة من أورام الأعضاء الباطنة المشاركة إذا تحركت إلى فوق.

فصل كلام كلي في العلامات الدالة على أصناف الصداع وأقسامه: أما الصداع الكائن عن الأسباب الكائنة من خارج، مثل ضربة أو سقطة وملاقاة أشياء حارة أو باردة أو سمائم مجففة أو رياح زفرة طيبة أو منتنة أو احتقان ريح في الأنف والأذن فالاستدلال عليها من وجودها، فإن غفل عنها رجع إلى آثارها فاشتغل بالاستدلال منها على نحو ما نبين. والذي يكون عن ضعف الدماغ فيدل عليه هيجانه مع أدنى سبب، ومع دورة الحواس ووجود الآفة في الأفعال الدماغية والذي يكون عن قوة حس الدماغ فيدل عليه سرعة الانفعال أيضا عن أدنى سبب محسوس في الدماغ عن الأصوات والمشمومات وغيرها.

وأما الكائن عن الأسباب المادية كلها فيشترك في الثقل الموجود ورطوبة المنخر، وإذا كانت المادة حادة وكان مع النقل حمرة وحرارة وخصوصا فيما هو من المواد أغلظ، وربما صحبها ضربان، وأما رطوبة المنخر فقد ثقل إذا كانت المواد غليظة ولا يكون يبس الخياشيم في مثل ذلك الصداع دليلا لعدم المواد إذا صحبه ثقل. والصفراوي يختص باللذع والحرقة الشديدة النخس، ويكون ذلك فيه أشد مما في غيره مع يبس الخياشيم والعطش والسهر وصفرة اللون، ويكون الثقل فيه أقلّ والبارد قد يدل عليه: البول والأزمان واللون، وإن كان ذلك الامتلاء عن تخمة دل عليه ذهاب الشهوة والكسل، والمواد الرطبة باردة كانت أو حارة فقد يدل عليها السبات، والبلغمي والسوداوي لا يؤلمان جدا. والمواد اليابسة يقل معها الثقل ويكثر السهر والباردة تخلو عن الالتهاب ويكثر معها الفكر الفاسد وتكمّد اللون وقد يستدل على كل خلط بلون الوجه والعين.

وربما اختلف ذلك في القليل، والسبب في ذلك إما اندفاع من الخلط الملتهب إلى العمق أو احتقان فيه، وإما انجذاب من مواد حارة غير المواد الموجعة الباردة إلى ناحية العينين والوجه بسبب الوجع. فإن الوجع إذا حلّ في عضو جذب إليه وإلى ما يجاوره، وأكثر ما

ينجذب في مثل هذه الحال إلى العضو هو الدم وقد ينجذب غيره أحيانا، وأما الكائن عن الرياح فيقل معه الثقل ويكثر معه التمدد وربما كان معه نخس وربما كان كالتآكل. ولا يكون في الريحي ثقل، وقد يدل على الريحي والبخاري الدويّ والطنين، وربما ردت معه الأوداج كثيرا، وقد يكثر معه الانتقال، أعني انتقال الوجع من موضع إلى موضع.

وإذا كثر البخار اشتد ضربان الشرايين وخيّل تخيّلات فاسدة وصحبه سدر ودوار. وأما الكائن عن أمزجة ساذجة فعلاماته الإحساس بتلك الأمزجة مع عدم ثقل ومع يبس الخياشيم، فإن يبس الخياشيم دليل مناسب لهذا. وأما الحارة فيحس العليل نفسه ويحس لامس رأسه حرارة والتهابا ويكون هناك حمرة عين وينتفع بالمبردات والبرد. وأما البارد فيكون الأمر فيها بالضد ولا يكون في وجههم نحافة الهزال ولا حمرة اللون، ولا يكون الوجع مفرطا. وأما اليابسة فيدل عليها تقدم استفراغات أو رياضات أو غموم ويكون من شأنها أن تزداد مع تكرر شيء من هذه.

وأما الكائنة بالمشاركة فأن تحدث وتبطل وتشتد وتضعف بحسب ما يحدث بالعضو المشارك من الألم، أو يبطل ويشتد ويضعف. وإن لم يكن بمشاركة، كان في سائر أفعال الدماغ كظلمة في العين وسبات وثقل دائم مع صلاح حال سائر الأعضاء. وإذا كانت الآفة في نفس حجب الدماغ وكانت قوية دل على ذلك تأدي الألم إلى أصول العينين. وإن كانت الآفة في الغشاء الخارج أو في موضع آخر لم يتأد الألم إلى أصول العينين. ووجع مس جلدة الرأس والكائن بمشاركة المعدة فيدل عليه وجود كرب وغثي أو قلة شهوة أو بطلانها أو رداءة هضم أو قلته أو بطلانه بعد وجود الدليل السابق. وإذا كان بسبب انصباب مرار إليها اشتد على الخواء وعلى النوم ريقا.

وربما كان الصداع بسبب في الدماغ فأوجب في المعدة هذه الأحوال والآفات على سبيل مشاركة من المعدة للدماغ، لا على سبيل ابتداء من المعدة ومشاركة من الدماغ، فيجب أن تثبّت في مثل هذا وتتعرف حال كل واحد من العضوين في نفسه، ومما يدل على ذلك في المعدة خاصة اختلاف الحال في الهضم وغير الهضم واختلاف الحال في الخواء والامتلاء. فألم المعدة إن كان من صفراء هاج على الخواء وإن كان من خلط بارد كان في الخواء أقل ويسكنه الجوع. وربما هيّج الجوع منه بخارا فآذى لكنه مع ذلك لا يسكّنه الأكل تمام التسكين في أكثر الأمر وربما سكّنه في الندرة، لكن الالتهاب والحرقة والجشاء يفرق

بينهما، وأنت ستعرف دلائل الجشاء في موضعه، وكذلك يفرق بينهما سائر العلامات التي تذكر في باب المعدة. وقد يدل على ذلك ما يخرج بالقيء ويدل عليه اختلاف الحال في الصداع بحسب اختلاف حال ما يرد على المعدة. وكثير من الناس ينصبّ إلى معدتهم مرار بأدوار، فإذا هاج الصداع وأكلوا شيئا سكن، فيكون ذلك دليلا على أنه بمشاركة المعدة وكذلك يسكن إن قذفوا مرارا.

ويدل ذلك الدليل وقد يستدل عليه من جهة الألم، فإن الذي بمشاركة المعدة أكثره يبتدئ في الجزء المقدم من اليافوخ، وربما كان مائلا إلى وسط اليافوخ ثم قد ينزل. والذي يكون من الكبد يكون مائلا إلى الجانب الأيمن، والذي يكون من الطحال يكون مائلا إلى الجانب الأيسر، والذي يكون بسبب المراق يكون مائلا إلى قدام جدا، والذي يكون بسبب الرحم يكون في حاق اليافوخ ويكون أكثره بعد ولادة أو إسقاط أو احتباس طمث أو قلّته. وكذلك حال الشقيقة والتدبير اللطيف ضار لمن صداعه يوجب العلاج بالتدبير الغليظ بسبب المرار وربما زاد الصداع في نفسه لشدة وجعه فتجلب شدة وجعه مزيدا فيه فاعلم هذه الجمل (موقع نداء الإيمان، ٢٠٠٦).

زاد المعاد في هدى خير العباد

في الجزء الرابع من كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد "الطب النبوي"، لابن قيم الجوزية، فصل في هَدي الرسول صلى الله عليه وسلم في علاج الصداع والشقيقة: روى ابن ماجه في "سننه" حديثا في صحته نظر، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صدع غلف رأسه بالحنّاء ويقول "إنه نافع بإذن الله من الصداع". والصداع ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله فما كان منه في أحد شقي الرأس لازما يسمى شقيقة، وإن كان شاملا لجميعه لازما يسمى بيضة وخودة تشبيها ببيضة السلاح التي تشتمل على الرأس كله وربما كان في مؤخر الرأس أو في مقدمه.

حقيقة الصداع وأنواعه وأسبابه: حقيقة الصداع سخونة الرأس واحتماؤه لما دار فيه من البخار، يطلب النفوذ من الرأس فلا يجد منفذا فيصدعه كما يصدع الوعي إذا حمي ما فيه وطلب النفوذ، فكل شيء رطب إذا حمي طلب مكانا أوسع من مكانه الذي كان فيه، فإذا عرض هذا البخار في الرأس كله بحيث لا يمكنه التفشي والتحلل وجال في الرأس سمي السدر. والصداع يكون عن أسباب عديدة أحدها من غلبة واحد من الطبائع

الأربعة. والخامس يكون من قروح تكون في المعدة فيألم الرأس لذلك الورم لاتصال العصب المنحدر من الرأس بالمعدة.

والسادس من ريح غليظة تكون في المعدة فتصعد إلى الرأس فتصدعه. والسابع يكون من ورم في عروق المعدة فيألم الرأس بألم المعدة للاتصال الذي بينهما. والثامن صداع يحصل عن امتلاء المعدة من الطعام ثم ينحدر ويبقى بعضه نيئا فيصدع الرأس ويثقله. والتاسع يعرض بعد الجماع لتخلخل الجسم فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره. والعاشر صداع يحصل بعد القيء والاستفراغ إما لغلبة اليبس وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه. والحادي عشر صداع يعرض عن شدة الحر وسخونة الهواء. والثاني عشر ما يعرض عن شدة البرد وتكاثف الأبخرة في الرأس وعدم تحللها. والثالث عشر ما يحدث من السهر وعدم النوم. والرابع عشر ما يحدث من ضغط الرأس وحمل الشيء الثقيل عليه. والخامس عشر ما يحدث من كثرة الكلام فتضعف قوة الدماغ لأجله. والسادس عشر ما يحدث من كثرة الحركة والرياضة المفرطة. والسابع عشر ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهموم والغموم والأحزان والوساوس والأفكار الرديئة. والثامن عشر ما يحدث من شدة الجوع فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ فتؤلمه. والتاسع عشر ما يحدث عن ورم في صفاق الدماغ ويجد صاحبه كأنه يُضرب بالمطارق على رأسه. والعشرون ما يحدث بسبب الحمى لاشتعال حرارتها فيه فيتألم والله أعلم.

فصل "سبب صداع الشقيقة": وسبب صداع الشقيقة مادة في شرايين الرأس وحدها حاصلة فيها أو مرتقية إليها فيقبلها الجانب الأضعف من جانبيه، وتلك المادة إما بخارية وإما أخلاط حارة أو باردة، وعلامتها الخاصة بها ضربان الشرايين وخاصة في الدموي. وإذا ضبطت بالعصائب ومنعت من الضربان سكن الوجع. وقد ذكر أبو نعيم في كتاب "الطب النبوي" له أن هذا النوع كان يصيب النبي صلى الله عليه وسلم فيمكث اليوم واليومين ولا يخرج. وفيه عن ابن عباس قال "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عصب رأسه بعصابة". وفي "الصحيح" أنه قال في مرض موته "وارأساه" وكان يعصب رأسه في مرضه، وعصب الرأس ينفع في وجع الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس.

فصل "علاج الصداع": وعلاجه يختلف باختلاف أنواعه وأسبابه، فمنه ما علاجه بالاستفراغ، ومنه ما علاجه بتناول الغذاء، ومنه ما علاجه بالسكون والدعة، ومنه ما علاجه بالضمادات، ومنه ما علاجه بالتبريد، ومنه ما علاجه بالتسخين، ومنه ما علاجه بأن يجتنب سماع الأصوات والحركات.

"العلاج بالحنّاء جزئي": علاج الصداع في هذا الحديث بالحناء هو جزئي لا كلي، وهو علاج نوع من أنواعه، فإن الصداع إذا كان من حرارة ملهبة ولم يكن من مادة يجب استفراغها نفع فيه الحناء نفعا ظاهرا، وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضمد به سكنت أوجاعه، وهذا لا يختص بوجع الرأس بل يعم الأعضاء وفيه قبض تشد به الأعضاء وإذا ضمّد به موضع الورم الحار والملتهب سكّنه.

وقد روى البخاري في "تاريخه" وأبو داود في "السنن" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شكا إليه أحد وجعا في رأسه إلا قال له "احتجم" ولا شكا إليه وجعا في رجليه إلا قال له "اختضب بالحنّاء". وفي الترمذي عن سلمى أم رافع خادمة النبي صلى الله عليه وسلم قالت كان لا يصيب النبي صلى الله عليه وسلم قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء (موقع "الإسلام"، ٢٠٠٦).

وفي الجزء الرابع من كتاب زاد المعاد "الطب النبوي" أيضا ذِكر شيء من الأدوية والأغذية التي جاءت على لسان النبي صلى الله عليه وسلم مرتّبة على حروف المعجم.

. الإثمد: هو حجر الكحل الأسود، يؤتى به من أصبهان، وهو أفضله، ويؤتى به من جهة المغرب أيضا، وأجوده السريع التفتيت الذي لفُتاته بصيص، وداخله أملس ليس فيه شيء من الأوساخ. ومزاجه بارد يابس، ينفع العين ويقويها، ويشد أعصابها، ويحفظ صحتها، ويذهب اللحم الزائد في القروح ويدملها، وينقي أوساخها ويجلوها، ويذهب الصداع إذا اكتحل به مع العسل المائي الرقيق، وإذا دُقّ وخُلط ببعض الشحوم الطرية، ولُطّخ على حرق النار، نفع من التنفط الحادث بسببه، وهو أجود أكحال العين لاسيما للمشايخ، والذين قد ضعفت أبصارهم إذا جعل معه شيء من المسك.

. التمر: ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: "من تصبح بسبع تمرات وفي لفظ: من تمر العالية لم يضرّه ذلك اليوم سمّ ولا سحر". وثبت عنه أنه قال: "بيت لا تمر

فيه جياع أهله". وثبت عنه أكل التمر بالزبد، وأكل التمر بالخبز، وأكله مفردا. وهو حار في الثانية. وهو مقو للكبد، ملين للطبع، يزيد في الباه، ولاسيما مع حَبّ الصنوبر، ويبرئ من خشونة الحلق، ومن لم يعتده كأهل البلاد الباردة فإنه يورث لهم السدد، ويؤذي الأسنان، ويهيج الصداع، ودفع ضرره باللوز والخشخاش، وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الدود، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية، فإذا أديم استعماله على الريق، خفف مادة الدود، وأضعفه وقلله، أو قتله، وهو فاكهة وغذاء، ودواء وشراب وحلوى.

. الحبة السوداء "الشونيز": دهنه نافع لداء الحية، ومن الثآليل والخيلان، وإذا شرب منه مثقال بماء، نفع من البهر وضيق النفس، والضماد به ينفع من الصداع البارد، وإذا نقع منه سبع حبات عددا في لبن امرأة، وسعط به صاحب اليرقان، نفعه نفعا بليغا.

. الحرف "الرشاد": وينفع من الصداع الحادث من البرد والبلغم.

. الريحان الفارسي "الحبق": حار في أحد القولين، ينفع شمه من الصداع الحار إذا رُش عليه الماء، ويبرد، ويرطب بالعرض، وبارد في الآخر، والصحيح: أن فيه من الطبائع الأربع، ويجلب النوم، وبذره حابس للإسهال الصفراوي ومسكن للمغص، مقو للقلب، نافع للأمراض السوداوية (موقع الخيمة العربية، ٢٠٠٦ أ).

وقد كتب "ديسكوريدس" وهو طبيب يوناني شهير عاش في القرن الأول الميلادي- أن بذور حبة البركة كانت تستخدم في علاج الصداع واحتقان الأنف وآلام الأسنان، بالإضافة إلى استخدامها الطارد للديدان، كذلك استخدمت كمدرّ للبول واللبن والعديد من الاستخدامات الأخرى (إسلام أون لاين، ٢٠٠٦ ج).

علاج الصداع بكهرباء الرعّاد قديما

ذُكر أن الطبيب العربي ابن البيطار جرّب علاج الصداع بالكهرباء بنفسه، وأنه نفع في تخفيف آلام الصداع المزمن. كما أن المسعودي، وهو من المؤرخين المعروفين بالدقة، ومن الرحالة الذين لا يزخرفون مشاهداتهم بشيء من الوهم والخيال، يؤكد ما قاله ابن البيطار. ودون أن يعرفوا ماهية الكهرباء أو حقيقتها العلمية، فهم يصطادون

"السمك الرعّاد" ويقرّبونه وهو حيّ حتى يلامس رأس المريض، فيصاب برجّة كهربائية سريعة، وبتكرار هذه العملية عدة مرات، تتحسّن حالة المريض.

ومعروف أن السمك الرعاد يحمل شحنة كهربائية عالية ترعد من يمسك به، حتى أن الصيادين يتفادون لمْسه حين اصطياده، وهناك طرق وآلات خاصة تقي الصياد وتحميه من قوته الكهربائية يعرفها الأطباء الذين ينووون الاستفادة منه لعلاج حالات الصداع المزمن. وقد جرّب ابن البيطار ذلك السمك وهو ميت على بعض مرضاه فلم ينفع في العلاج، ولكنه جرّبه وهو حيّ فتيقّن بوضوح من فعاليته في العلاج. وعن ذلك يقول: "رأيت بساحل مدينة "مالقا" في بلاد الأندلس سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر، وباطنها أبيض، وفعلُها في تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر أو أشدّ، إلا أنها لا تؤكل البتة، وإذا وُضعت على رأس الذي له الصداع المزمن، سكّن شدة وجعه".

ويتحدث ابن البيطار في كتابه الشهير "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" عن هذا السمك قائلا: "والرعاد هو الحيوان البحري الذي يُحْدِث الخدر. وقد ذكر قوم أنه إذا أُدنيَ من رأس من يشتكي الصداع سكّن صداعه، وإذا أدنيَ من مَقْعَدَة من انقلبت معدته أصلحها، ولكن قد جرّبْت أنا الأمرين جميعا فلم أجده يفعلها، ولا واحدا منهما، ففكرت في أن أدنيه من رأس صاحب الصداع والحيوان حي، لأنني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يسكّن الصداع بمنزلة الأدوية الأخرى التي تحدّ من الحمّى فوجدته ينفع ما دام حيا". وقد اكتشف ابن البيطار في هذه التجربة أن قوة الرعدة الكهربائية هي سبب العلاج، وأن السمكة لا تحمل هذه الصفة إلا وهي حية.

وفي "مروج الذهب" يخبر المسعودي عن قدرة هذا السمك في علاج من يعانون من الصداع المزمن، وكأن الأمر معروف لدى الجميع، فيقول: "وهذا السمك- الرعاد- إذا وضع وهو حي على رأس من به صداع قوي، شُفِي" (موقع الفاتح، ٢٠٠٦).

الصداع والمسّ الشيطاني

هناك اعتقاد بأن الصداع من أبرز أعراض المسّ الشيطاني، رغم أن للصداع أسبابه العضوية وغير العضوية، كنتيجة مرض في العين أو الأنف أو الأذن أو بسبب الإمساك، كما يحدث إثر السهر والأرق والتفكير المضني أو كثرة المشاكل الحياتية، وهذا النوع

من الصداع له عادة علاج طبي. إلا أنه يعتقد بوجود صداع آخر يعجز الأطباء عن علاجه، ولا تثمر معه أنواع الحبوب المسكّنة، ويعتقد بأن هذا النوع من الصداع في الغالب سببه الشيطان، ومن أعراضه: يكون الصداع متنقلا في الرأس، لا يدوم بل يشعر به الإنسان مرة وينفكّ عنه مرة أخرى، إذا ضُرب مكان الصداع في الغالب يزول أو ينتقل من مكانه ثم يعود، إذا غسل الرأس بماء قُرء عليه القران فإنه يخف أو يزول بإذن الله وقد يعود (موقع الخيمة العربية، ٢٠٠٦ ب).